وإنه يرجو أن يرد بذلك بصره عليه ، فضحك « عبد السميع » وقبل . وكان قد ألف أن ينظر الأطباء فى عينيه وأن يسمعهم يتلاغطون بما لا يفهم ، ثم يمضون عنه ويبقى هو على حجره

وجاء يوم نظر فيه الناس فاذا الحجر خال ، ولا « عبد السميع » هناك ، فصارت الأعنة تُلقى إلى صبيان يشدونها إلى مسامير فى الحائط ، وينامون ويتركون الحمير تتراقص

وكان « عبد السميع » راقداً على سرير نظيف فى مستشفى ، وعلى رأسه ووجهه — إلى أرنبة أنفه — الضمادات ، وهو ساكن لا يقول شيئاً ، ولا يبدى ألماً أو ضجراً ، ولا يدع شكه يغلب بشره أو شكره لصديقه ، وكان من العسير أن يعرف أحد فى أى شىء يفكر هذا الراقد المعصوب الرأس . ولعله — لطول صمته على خلاف عادته — كان يجاهد أن يتصور الدنيا الجديدة التى سيرثها حين يفتح عينيه عليها ويبصرها لأول مرة ؛ ولعله كان يستهول أن يبصر كل ما عرفه وألفه بحواسه الأخرى ، وكان كل ما يجيب به الطبيب حين يحدثه وهو يغير له الضمادات « إن شاء الله ! إن شاء الله ! » ثم يتحرك كالقلق المضطرب على هذا الفراش الناعم تحت اللاءة النظيفة

وكان الطبيب واثقاً من نجاحه ، فجمع إخوانه — زملاءه — فى صباح يوم ، وحل الأربطة بعناية وحذر ، ثم ترك ضوءاً خفيفاً يدخل فى الغرفة ، وتناول يد « عبد السميع » برفق ، وهو أشد ما يكون اضطراباً وسأله « أترى شيئاً ؟ » فقال عبد السميع — وعلى فمه ابتسامته التى لا تزايله — « صبراً ، صبراً » ، فصبر الطبيب لحظة ثم فتح النوافذ فغمر النور الحجرة وملأها الشمس ورقدت أشعتها على السرير والجالس عليه ، والأطباء حافون به ، منحنون اليه ، يحدقون فى وجهه وأنفاسهم مسرعة ، وقلوبهم فى حلوقهم ، و « عبد السميع » ساكن ، ووجهه الباهت من طول الرقاد ، إلى النافذة التى تطل على النيل ؛ ثم تحركت يداه ، وارتفعت كفه إلى عيناه ، وجعلت أصابعه المرتعشة تتحسس عينيه ، فأدرك القوم أن الطب أخفق ، وتوجع الطبيب الألمانى وأرفض دمعه ، فغطى وجهه بكفيه ليحبس عبراته أو يكتم نشيجه ، وسمع « عبد السميع » ما يتردد من البكاء المكتوم فنهض ، وعلى وجهه ابتسامة رزينة ، وتحسس طريقه إلى صديقه المحزون ، ومد يده الخشنة فلمست لحيته المبللة ، فنقلها إلى كتفه

وقال بصوت لا يشى بما عسى أن يكون مطوياً تحت ضلوعه

« لا تبك ياصاحبى ! ازجر عينك ، إنه قضاء الله ، ولاحيلة لنا فيه ، ومن نكون نحن حتى ندفعه أو نغيره ! » ثم تلفت ، فأقبلوا عليه يسألونه هل يريد شيئاً ؟ قال : « نعم — صبى يعود بى »

وعاد إلى حجره ، وخيله وحميره ، فلم يغب عنها بعد ذلك مرة أخرى ، ولم يقل لأحد أين كان

ابراهيم عبد القادر المازنى

من مشاهد الشرق

٤ — طائفة البهرا فى الهند

ملحوظات فى المجتمع البهرى

بقلم محمد نزيه

تتمـــــة

يقول الكمل الوقور محمد على بخش رئيس الوزارة البهرية فى وصف طائفته ، إنها (طائفة تجارية) لا يحيد عن سبيل التجارة واحد من أبنائها ، فاذا تنكب أحدهم هذه الطريق أو ضلها ، فلاذ بكرسى للحكومة ، أو زاول حرفة من الحرف لم تكن التجارة جل همه منها ، فقد انحرف عن تقاليد الطائفة ، وعق ديانتها ، ورماها فى أمنع حصونها ، فأصاب منها منازل القدسية والحرية والجاه

هى جماعة أقسمت مذ وضعت فى كف الحياة كفها ، ألا تعرف خفض العبودية ولا يعرفها رق هذا الزمان ، وإنهما ليقتحمان كل شىء إلا هذه الأمة التى أجمعت على ألا يكون الوطن المقدس رقعة من الأرض يهون امتلاكها ، ولا يعز اغتصاب ما فيها ومن فيها ، بل هم استغنوا عن الوطن المقدس بالعهد المقدس أن يكون صغيرهم ابن كبيرهم ، وكبيرهم أبا صغيرهم ، وكل كبارهم أشقاء وكل صغارهم أشقاء ، وأولئك وهؤلاء كأنما انتظم أرواحهم جميعاً سمط واحد من شعاع الشمس لا يقطع أبدا . وإذ كان لا بد لهذا الجوهر الأحد من معارف وبواطن تفرق بينه وبين سواه ، فان أجلى معارف البهرى ابتعاده عن مخالطة أى امرئ

من غـير طائفته ؛ ومُعظم بواطنه الحب والمودة والأهبة الداعة لمعاونة أخيه فى مذهبه ، دون تفريق بمختلف الأجناس والمراتب، فاستغنوا بقوادهم عن كل حاجة إلى سواهم ، حتى (الحكومة) يعزفون عن أعمالها ، ترفعاً بأنفسهم عن شعور الحاجة إليها يوماً من الأيام

يقدم البهرى من أقاصى إفريقية على بمبى ، فينزل من قلوب أبناء الطائفة هناك ، منزلة من عاد إلى أمه وأبيه من سفر طويل ، كل بيت من بيوتهم هو ملك يمينه حتى تقر نفسه وتذهب وحشته ، فينفح بما تحتاج التجارة إليه من مال ، يبدأ به عمله ، فاذا لمح وجه الفشل ، أسرع فوضع أمره بين يدى طائفته ، فلا يكاد ذلك يَضِح لهم ، حتى ينهالوا على بضاعته ابتياعاً ، إلى أن تروج سوقه ، وتبدو طلائع نجاحه ، فإن تجده مهما نقبت عنه ، ذلك البهرى الذى لم يفِ الله عليه نعمة السعة واليسار

وإذ كانت شؤون هذه الأمة الواحدة فى حاجة إلى الراعى ، يصرفها ويسهر على تدبيرها ، فلا بد لها من قاض يفرق بالعدل بين أبنائها جميعاً فيرضيهم جميعاً ، وهذا القاضى هو داعى الدعاة فى بمبى ، وهو نائبه فى كل بلد اتخذها بعض هذه الطائفة منزلاً ، يخولونه أمرهم فيقضى بينهم بما شاء ، لا يرد له حكم ولا يراجع فى أمر ؛ ملك لا يملك من أسباب السلطان إلا عدل القاضى ، فكيف يبرم عدله ولا ينال للمظلوم من ظالمه ، وإنما يحكم بالعدل ويأمر ضمير الظالم أن يجزى صاحبه وأن يردعه ، بل لعل المظلوم لا يشكو ، وإنما ظالمهم هو الذى يشكو أن ضميره يخزه ويشتد عليه مذ ظلم ، فيادعى القوم ! كفى عذاب الضمير فانه ليوشك أن يكون كالموت لا يُستعتبُ . . . هـذا قاض أمره عجيب ، وقضاؤه أعجب ، أتراه يمضى على شرعة مدونة ؟ أتراه يستلهم قانوناً بعينه ماله عنه من محيد ؟ كلا ، وإنما يستلهم قوة روحه ، وقد استُمِدت من معالم الشيعة وأعلام كتبهم

يعدل الداعى بقوة الروح ، ومن مظاهرها أنها تسترقُّ الناس حولها ، مرتقبين لا مرتهبين ، بدافع الحب ، ومظهرُ الحب الخضوعُ ، يسمو حتى يصير تفانياً . تتجه القلوب إلى الداعى ، لأنه عظيم من عظمة الله عظمته ؛ ثم تتعلق القلوب به ، لأنه مقدس من قدسية الله قدسيته ، ثم تتقبل ظله قبول الرضا ، لأنه ولى المالك المتصرف ــ فى رأيها ــ فاذا عدل ، تفانت فيه ، فاذا أحب فنيت فى روحه ، وذاك داعى الدعاة عند طائفة البهرا

هو فرد ولكنه الجماعة كلها ، وهم جماعة ولكنهم فرد واحد يقل ويقل حتى تتسع له سويداء قلب واحد كبير ، هو قلب هـذا الرجل ، يحدب عليهم وما يحدب إلا على نفسه ، ويحدبون عليه فهم على أنفسهم يحدبون . ولقد علمت أن الحب شريعتهم ، فاعلم أن أول أحكام هذه الشريعة أن ما يحوزه كل بهرى هو للشيخ قبل أن يكون لصاحبه ، يتصرف فيه متى شاء أينما شاء كيفما شاء ، وما جار . أليس رب الدعوة إلى التعاون والتساند والتعاضد وهى التى أثمرت كل ما أوتيت الطائفة من مال أو أكثره ؟ نعم فلكم أغنت هذه المبادئ عائلاً ، وأعزت يتيماً ، وروّت صادياً ؛ وهل يكون ساقى البذرة إلا رب ثمارها . . . وفيم ينفق الأمين العادل المحب ماله إلا على الأمانة والعدل والحب ؟ إنه ليأخذها صاعاً فيردها بأمانته وعدله وحبه عشرة

على أن الشيخ لا يَهْنِيئُه طعامُه إلا إذا كان من كد يمينه ؛ ولهذا يشتغل بالتجارة ، ولأمر آخر هو القدوة ، ويربى تجارته كأى من أبناء طائفته ، ولا ينسى حادث ذلك الشيخ الذى عاش فى المدينة على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فكان لا ينقطع عن العبادة فى ليله أو نهاره ، إلا ريثما يتأهب لرجع ما انقطع ، وإنه لزاهد بالدنيا لا يحمل لدنياه هماً ، وإن حمل لآخرته هموماً ، يخف الناس إلى تزويده بالطعام سراعاً وهم يغبطونه على تزوده للآخرة ، حتى مر النبى به فى بعض غدواته ، فدنا ممن أحاطوا به ، وسألهم ما خطبهم حتى تكأكأوا على هذا الشيخ ، قالوا : رجل صالح يا رسول الله ، نهاره وليله صيام وقيام ، فعجب النبى عليه الصلاة والسلام ! وأسرع يسأل ، ومن يقوم بطعامه ؟. من يقوم بطعامه ؟ ! رسول الله يسأل ؟ فيا فخرنا عند رسول الله إن كنا نطعم الشيخ الصالح ، ويا حظنا من رضا رسول الله إن علم أننا نؤثره على أنفسنا بالطعام . . . لم يكد النبى يسأل ، ومن يقوم بطعامه ؟ حتى تسابقت أصوات كثيرة تقول ، ترجو ثواب الله . . . كلنا نطعمه يارسول الله ، وأحاطت أبصارهم بوجه النبى ترصد ابتسامة الرضـا ، فاذا بالوجه المشرق الكريم يعبس ، ويضطرب ، ثم تجتمع فى غضبته حكمة الأبد من قوله : (كلكم خير منه) . داعى الدعاة الشيخ المسن لا ينسى هذا الحديث ، وإن قومه ليقدسونه ، وتطيب نفوسهم له بكل ما يملكون ، ويبلغ من تقديسهم شخصه أن يستكبروا على الأرض أن تمسها قدماه ، فيحملونه إذا أراد الانتقال من حجرة من قصره إلى

أخرى ، وهو على رغم ذلك كله حريص على أن يغدو إلى متجره كل يوم ، فيقضي بعض نهاره عاملاً لدنيــاه ، كأنه على شيخوخته وضعفه ، يعيش أبداً

إن الدين لله ، فما يحفظ رجل الدين عليه حرمته ، إذا وزن الدعوة إليه بالدرهم والدينار ، إنما يسمو رجل الدين ، وتخلص روحه ، وتصقل نفسه فلا تمسها شائبة من أكدار الدنيا ، إن يلتمس على جهده مثوبة الله وحده ، مزدرياً الوظيفة تجرى عليه فتذكره كلما أوشك أن ينسى ، بأن دعوته رهن بوظيفته ، ووظيفته رهن بدعوته . . . . فهل نوجب على رجل الدين أن يكون زاهداً ؟ كلا بل نريده مع ذلك مكفول الرزق موفوره ، بادى النعمة واليسار ، عالى الكف يعطى ويتعفف أن يأخذ ، وكيف السبيل ؟

سبيل واحد يسلكه داعى الدعاة البهرى ، وعماله فى مختلف البلاد ، وقد سلكه من قبله أشرف البشر وسيد سادتهم محمد عليه الصلاة والسلام ، إذ كان تاجراً ؛ وفى التجارة وهى أم (المعاملات) ، ألوان من الخير والأمانة والصدق والاستقامة والقناعة والدأب ، ومن كل فضيلة فى الأرض ، وهى التى توجت (بالأمين) اسم محمد ، و (بالصادق) أمانة محمد ، فكانا شافعيه لدى الله فى اختياره ، ولدى الخلق فى دعوته

وفى هامش هذا الحديث فلنذكر ، أن داعى دعاة البهرا ، أراد فى العام الماضى ، وكنت حينئذ فى بمبى ، أن يحج إلى كربلاء موطن قبر الحسين ، ومفيض نفسه ودمه ، وإذا سار الشيخ كانت الطائفة كلها تسير ، فلا بد من مظاهر العظمة ومطالع الجلال ، وأسباب التحدث بنعمة الله ، وفى سبيل ذلك اكترى الشيخ باخرة من عظام البواخر ، عبرت به إلى البصرة فى ستمائة بهرى ، وما فتئ مذ وطئت قدماه أرض العراق يمجد الناس من عطاياه ، بأكرم ما يتسع له كرم ، وأكمل ما يفيض به جاه . . فمن أين ؟ من تجارة الشيخ وكد يمينه

***

فليته هذا الحديث الذى لا يفرغ منه ، بأمرين ، أولهما أن التعاون والمحبة هما روح الجماعة الصالحة المفلحة ، وعلى قدر القلة فى عدد الجماعة تكون قوة هذه الروح ، فكأن أجدادنا لم يخطئوا حين اتخذوا نظام القبيلة ، وكأننا أحفادهم ، لم نتقدم خطوة واحدة حين خلفنا نظامها

وثانيهما أن التجارة أشرف حرفة وأعف حرفة ، وأكفل حرفة بالنعمة واليسار ، وأيسر حرفة مع الفضيلة ، فإذا أهبنا برجل الدين ، وإنه لأعظم الناس خطراً أن يعوّل عليها ، ويلتمس شرفها ، فأخلق بكل رجل أن يحمّلها أمنيته من الغنى : غنى النفس وفى أعقابه غنى المال ؟

القاهرة — محمد نزيه

النهضة التركية الأخيرة

والموسيقى الشرقية

بقلم عبد الحميد رفعت شيحه

قرأت بشغف عظيم ما خطه يراع الأستاذ القدير الدكتور عبد الوهاب عزام عن « النهضة التركية الأخيرة » وما تناوله من بحث ونقد أبرز الإصلاحات الكمالية بقلم نزيه مخلص يظهر منه بجلاء الأسف الشديد الذى يشاركه فيه كل شرقى يعتز بشرقيته على ما قام به الترك من قطع كل ما يصلهم بالشرق ، وتجنبهم كل ما يدنيهم منه كما يتجنب السليم الأجرب ..! معتقدين أنهم بذلك يضمنون عطف الغرب عليهم ، فى حين أنهم لن ينالوا إلا سخرية تلك الأمم التى تقدس الشخصية والجنس

ولما لم يشر حضرة الأستاذ الدكتور إلى حملة الكماليين على الموسيقى الشرقية رأيت أن أتناول هذه الناحية بهذه الكلمة :

للموسيقى الشرقية تاريخ مجيد لم يبق خافياً على أحد . إلا أنه من الإنصاف أن نعترف بفضل الأتراك وخدمتهم لها . . فإننا لم نعد نقرأ فقط ما استحدثوه من علوم وفنون فيها ، ومن اشتهر بينهم من أعلام الموسيقى ، بل حفظوا لنا آثارهم الفنية بتدوينهم لها بعد استعمالهم « النوتة الغربية »

وهم وإن كانوا إلى وقت قريب يستعملون التدوين للموسيقى على أخطاء كثيرة ، إلا أنهم على كل حال قد صانوا ثروة فنية عظيمة يحق لنا أن نفخر بها أمام الموسيقى الغربية

هذب الأتراك الموسيقى الشرقية وأحدثوا بها فنوناً لم يكن للشرق عهد بها ، وتبحروا فى علم الأنغام ووضعوا لكل نغم شروطاً دقيقة تميزه وتظهر شخصيته بجلاء ، ولهم فى هـذا